

بلاغة التعريف بالوصولية:

دراسة تطبيقية في النص القرآني الكريم.

د. لخضر سعداني ، جامعة الوادي

الملخص بالعربية:

إن أرقى درجات البلاغة تتجسد في الخطاب الرباني الذي أعجز أرباب الفصاحة والبيان العرب، وأسكت الإنس والجن على أن يأتوا ولو بأقل شيء منه. إنه المعين الذي لا يتوقف الكشف عن أسرار سحره وجمال أسلوبه، وهو لا يتأخر عن تقديم جواهر البلاغة لمن أوتوا علما وفطنة وذوقا، عبر الأزمنة. وتصدق هذه الحقيقة على الاستعمال القرآني للاسم الموصول، بحيث تسفر الفحوصات الأسلوبية المدققة لمواضع استعماله في النص الكريم عن إرادة معان بلاغية يستهدف المتكلم تبليغها. يعالج هذا المقال من الزاوية البلاغية مجموعة نماذج القرآنية مشتملة على الاسم الموصول وصلته، ويسعى إلى الكشف عن مختلف المعاني المستهدفة فيها، وذلك بالاستفادة من كتب علماء البلاغة، والاستعانة خصوصا من كتب المفسرين للقرآن الكريم.

Summary in English :

Rhetoric of Definition by the Relative Pronoun:

An Applied Study in the Holy Qur'anic Text

The highest levels of rhetoric are embodied in the Qur'anic discourse. which obliged masters of Eloquence and rhetoric to be silent. and unabled mankind and Jinn to give even less nothing as Koran

It is the source that does not stop revealing the secrets of its charm and beauty. And It is not late to provide the jewels of rhetoric to those who have given knowledge and understanding and taste, through the times.

This truth is based on the Qur'anic use of the relative name, so that the stylistic checks of its places of use in the Qur'anic text reveal the will of a rhetorical object that the speaker is meant to communicate.

This essay deals with a collection of Qur'anic forms containing the use of relative name. And seeks to reveal the different meanings wanted to be aimed, using the books of scholars of rhetoric, and those of the interpreters of the Koran.

يحسن بنا دخول هذا الموضوع من باب التعريف بالموصول الاسمي. ألا وإن من التعريفات الكثيرة له تعريف ابن الناظم، وهو من أجمعها وأبسطها، قال: هو الاسم المهم، الذي يحتاج في توضيحه، وتعيين المراد منه إلى شيء يتصل به، يسمى الصلة وهي مشتملة على ضمير أو شبهة يربطها به، يسمى العائد⁽¹⁾. فهو من ألفاظ العموم، ويتضح معناه المراد ويتعين بواسطة جملة تضم إليه وتلازمه تسمى صلته، مرتبطة به بعائد يرجع إليه. والغرض الأصلي للصلة الذي قرره النحاة هو ضرورة أن تأتي خبرية معهودة للسامعين معلومة بينهم، إلا في مقام التحويل⁽²⁾ كما في قوله تعالى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾⁽³⁾.

كما يقسم النحويون ألفاظ هذا الاسم إلى قسمين: مختص، وعام "ويسمى: مشتركاً". فالمختص: ما كان نصاً في الدلالة على بعض الأنواع دون بعض، مقصوراً عليها وحدها، وهي (الذي) للمفرد المذكر، (واللذان واللذنين) للمثنى المذكر، و (الذنين) للجمع المذكر العاقل، و (التي) للمفردة المؤنثة، و (اللتان واللتين) للمثنى المؤنث، و (اللاتي واللواتي واللاتي) - بإثبات الياء وحذفها - للجمع المؤنث، و (الألى) للجمع مطلقاً، سواءً أكان مذكراً أم مؤنثاً، وعاقلاً أم غيره والعام أو المشترك: ما ليس نصاً في الدلالة على بعض هذه الأنواع دون بعض، وليس مقصوراً على بعضها؛ وإنما يصلح للأنواع كلها. وهي "مَنْ وما وذا وأَيُّ وذُو وأل"⁽⁴⁾

ويتعرض البلاغيون للفروق الدلالية والدواعي البلاغية للتعبير بمعرفة دون أخرى في باب المسند إليه، ومنها التعبير بالاسم الموصول.

قال السكاكي في استخدام التعريف بالموصولية إنها تستعمل لعدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة، أو استهجان التصريح بالاسم، أو زيادة في التقرير، أو التفخيم، أو تنبيه المخاطب على خطأ، أو الإيماء إلى وجه بناء الخبر... الخ. وكذا جاء في تلخيص الخطيب القزويني وشروح التلخيص⁽⁵⁾. وإن بين التعريف باللام والتعريف بالموصولية فرقا لفظيا ظاهرا، وهو أن المعرفة ب (أل) أخصر من المعرفة بالموصول؛ فيمكن أن يقال إن الأصل هو المعرفة ب (أل) لأنه أخصر ما لم يكن المقام مقتضياً للإطناب.

ويجتهد هذا المقال في دراسة جملة حالات من التعريف بالاسم الموصول اقتضتها مقامات متعددة في القرآن الكريم، محاولا تحديد الأغراض التي لأجلها ركب الكلام باستعمال التعريف بالموصولية دون "لام التعريف" أو غيرها من المعارف.

1. غرض زيادة التقرير مع الرغبة في التستر على الاسم:

قال جلّ جلاله: ﴿وَرَأَوْدَتْهُ آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾⁽⁶⁾.

قال ﴿آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ ولم يقل امرأة العزيز أو زليخا قصداً إلى زيادة تقرير المرادة؛ فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك، وإشعاراً بزيادة التقبيح، مع الرغبة في المحافظة على الستر عليها.⁽⁷⁾

فالعدول عن المعرفة بالإضافة أو العلمية إلى الموصول وصلته كان بقصد إثبات المرادة لزليخا التي كان سيدنا يوسف عليه السلام في بيتها، فهي ذات سلطان عليه. وفي اختيار التعبير بالموصولية هنا بعدد حجاجي إقناعي يذهب بالأذهان إلى تقبل مظنة الوقوع في الإثم يبسر نظراً لتيسر الظروف المغربية بذلك. كما أن الصلة مشعرة بأن اسم هذه المرأة كان لا يراد التصريح به محافظة على التستر أو للاستهجان بذكرها. والأكثر رجحاناً في نظرنا هو التستر؛ إذ تحدث بعض التفاسير والأخبار بأن هذه المرأة ستؤول في نهاية حياتها إلى التوبة النصوح، فكان من الأدب الذي علمنا إياه الأسلوب الريائي ألا يتلفظ باسمها؛ لئلا تنشأ منه أو نستنكف من التسمية به بسبب أنه التصق بهذا الاسم معنى الشناعة زمناً قبل توبتها.

وبالإمكان فهم غرض آخر يهدف إليه التعبير القرآني من العدول عن ذكر اسمها إلى التكنية عنه وهو الغرض التعليلي. قال بعض المفسرين المحدثين في هذا الأسلوب: قال سبحانه: ﴿آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ دون ذكر لاسمها ستراً لها، وابتعاداً عن التشهير بها، وهذا من الأدب السامي الذي التزمه القرآن في تعبيراته وأساليبه، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب في التعبير.⁽⁸⁾

إن الأغراض المتوخاة من توظيف التعريف بالموصول الاسمي وصلته، هي مثلاً زيادة في التقرير، والتقبيح، والتستر عن الاسم أو استهجان ذكره، أو إرادة التأدب والتحوط في الكلام، التعليم... الخ أو غير ذلك مما قد يكون جلياً للأذهان أو بعيداً يدرك بالإعمال. هي أغراض ناطقة بقصدية الخبر المذكور وتداوليته؛ نظراً لما يحويه من تأثيرات في المتلقي، هي أخيراً تكاليف ضمنية، موجهة إلى المخاطب بالنص القرآني، ومواعظ عليه العمل بها في نطاق حياته معاملات وأخلاق.

ويتضح من هذا النموذج القرآني المؤثر لاستخدام الموصول الاسمي وصلته بدل أي من المعارف الأخرى، أن الأغراض قد تتعدد في النموذج الواحد، ويتوقف الكشف عن هذا التعدد على مدى فهم وإدراك المتأملين في النظم القرآني وسياقاته الخارجية، وفي مدى درجاتهم في القدرة على قنص المعاني البعيدة، والأهداف المنشودة، والتكاليف المراد توجيهها إلى العباد.

2. غرض التعليل.

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾⁽⁹⁾

المعنى العام للآية: "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي واشكروني لأنني أنعمت عليكم". وأصل المعنى في الآية: "اذكروا نعمتي"، دون ذكر الموصول وصلته، وإنما زيداً بعد المفعول "نعمتي" لأجل التعليل لقوله: اذكروا.

وإن نظرة في تفاسير القرآن الكريم ترشدنا إلى أن معنى التعليل الذي استعمل له الموصول وصلته، قد لمحته أذهان المفسرين قديما وحديثا. فقد جاء في تفسير الطبري (المتوفى سنة 310هـ) أن القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ [البقرة: 40] أن نعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل جل ذكره هي في اصطفاؤه منهم الرسل، وإنزاله عليهم الكتب، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المن والسلوى. فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكونَ ما سلف منه إلى آباءهم على ذكر، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحل بهم من النقم ما أحل بمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها، وجد صنائعه عنده. ⁽¹⁰⁾ فبين في هذا التأويل أن حلول نقم الله يحيق بمن نسي وجد النعم التي منحها الله عبده. وهذا يعني أن إنعام النعم موجب للشكر والذكر، لأنه علة فيهما. وتعطيل العلاقة بينهما يوجب إحلال النعمة.

ومعنى العلية كان أدركه فخر الدين الرازي في التعقيب على هذه الآية فذكر أنه ... لو لم تحصل النعم لم يلزم الشكر. ولم يلزم من عدم إقدامهم على الشكر محذور، لأن الشكر لا يمكن إلا عند حصول النعمة ⁽¹¹⁾. وتعقيبه يشير بجلاء إلى أن الوصف بالموصول وصلته استعمل ليفيد معنى العلية لوجوب الذكر وهو الشكر. ويحصل من الأمر وتعليل طلبه خطاب حجاجي يُلزم المخاطبين _ وهم بنو إسرائيل وغيرهم _ بالامتثال للتكاليف الموجبة إليهم من قبل الله جل وعلا.

وقد لمح ابن عاشور معنى التعليل في الآية حيث قال: "...فقوله" التي أنعمت عليكم" وصف أشير به إلى وجوب شكر المنعم لما يؤذن به الموصول وصلته من معنى التعليل... ⁽¹²⁾

إن المقدرة اللغوية لهؤلاء المفسرين وفهمهم السديد لما تقضي به أساليب العربية، والباع الذي أوتوه في قنص المعاني البعيدة، هو الذي مكبهم من اكتشاف البعد التداولي لتركيبية "التي أنعمت عليكم"، وجعل نهاية نظرهم تؤول إلى وجود غرض التعليل في استعمال الموصول وصلته.

3. التنبيه على خطأ المخاطبين قصد تنديمهم.

قال عز من قائل: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ⁽¹³⁾

قد جاء التعبير القرآني بالموصول صفة "للموت" لأجل تنبيه المخاطبين على ما هم فيه من خطأ؛ إذ هم يفرون من الموت طمعا في النجاة منه. إن الموت ملاقيهم وواقع بهم لا محالة، كما قال تعالى: ﴿ أَيَنْتُمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ ⁽¹⁴⁾. وكما في قوله: ﴿ قُلْ لَنْ يُفْعَلَكَ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ ﴾ ⁽¹⁵⁾، فمجيء الموصول بنبه هؤلاء المخاطبين على اعتقادهم الخاطي وتفكيرهم السقيم. ولا يتوقف مراد الصلة هاهنا، إنما يذهب إلى حملهم على الاعتقاد الإيجابي والتفكير السليم وحقيقة الأمر وواقعه، فيتحول سلوكهم في الحياة من كونه ثمرة للعقيدة الخاطئة إلى ثمار تعكس عقيدة الإيمان بأن الموت نقطة عبور إلى الأخرى وتحول من دار الأعمال إلى دار الحساب والجزاء، إلى غير ذلك مما يعتقده المؤمنون.

ومثل غرض التنبيه على خطأ المخاطبين، إضافة إلى غرض آخر، قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. (16) ففي تفسير التحرير والتنوير يقول محمد الطاهر بن عاشور: وإيثار اسم الموصول في قوله " مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ " لما تؤذن به صلة الموصول من التنبيه على أنهم مخطئون في عبادة ما لا يضر ولا ينفع. وفيه تمهيد لعطف ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، (17) لتحقير رأيهم من رجاء الشفاعة من تلك الأصنام، فإنها لا تقدر على ضرر ولا نفع في الدنيا فهي أضعف مقدره في الآخرة. (18)

إن الموصول وصلته في هذا السياق المقامي نبه على الخطأ الذي كان كفار مكة واقعين فيه من ظنهم أن عبادة الأصنام تضر وتنفع. وأفاد أيضا فائدة نحوية دلالية تتمثل في التوطئة لعطف الجملة التالية: " ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " على جملة " ويعبدون من دون الله ". فقد مهد لهذا العطف بالمعنى الذي تضمنته الصلة، ولولا ذلك التلاؤم بين لفظ الخبرية وكذا التوافق المعنوي بين الجملتين الفعليتين المضارعتين ما كان يصح الوصل بينهما.

4. الإيماء إلى الوجه الذي بني عليه الحكم. (19)

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (20) كان المشركون يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزئون به، فبني المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه. كما كان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين، فنها أن يقعدوا معهم كما نها عن مجالسة المشركين بمكة. (21) فأمر المؤمنين بعدم مجالسة هؤلاء المتجرئين على كلام الله يتناسب مع شرف الدعوة والتمسك بالعقيدة الإسلامية.

أن التعريف بالموصول يَوْمى إلى الوجه الذي بني عليه الأمر بالإعراض. وهذا الأمر أمر غريب لا يتوافق مع دعوة محمد صلى الله عليه وسلم التي تتطلب الاتصال بالناس والصبر عليهم لأجل عرض دعوة الدين. إن المقام هنا يستدعي قدرا من التوجيه والتعليل. وكان الاسم الموصول مع صلته إيرادا للكلام على ما يقتضيه الحال من ضرورة البيان والتعليل لحكم الإعراض الذي أمر به محمد عليه الصلاة والسلام.

ويتأكد الغرض من استعمال الموصول وصلته في الإيماء إلى الوجه الذي بني عليه الحكم، من بقية الكلام في الآية أي: " فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره" بحث جاءت "حتى" قيذا غائبا في الإعراض الذي أمر به، فإذا زال الخوض في آيات الله وجاء الخوض في حديث آخر، تكون علة الأمر بالإعراض قد زالت. وبالتالي زال الحكم المأمور به صلى الله عليه وسلم.

قال علامة تونس في تفسير هذه الآية: " وهذه الآية أحسن ما يمثل به، لمجيء الموصول للإيماء إلى إفادة تعليل ما بني عليه من خبر أو إنشاء، ألا ترى أن الأمر بالإعراض حدد بغاية حصول ضد الصلة (22).

ومن أنصع الأمثلة أيضا في غرض الإيماء إلى الوجه الذي بني عليه الحكم، قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (23)، فمراد الله بالمعية معيته بالرحمة والفضل والرتبة، وهي معية دائمة لا يحول حول صاحبها شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر. واستعمل النظم الكريم التعبير

بالموصول الاسمي وصلته ترميزاً إلى علتي التقوى والإحسان، اللتين اتصف بهما صنف محظوظون من المؤمنين، فكانوا مستحقين لولاية الله لهم.

وفي الآية بعض الخصائص التركيبية. وتتمثل في تكرير الموصول، وهو تكرار مؤذن بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداها تنمة للأخرى، وإيراد صلة الأول فعلية للدلالة على الحدوث كما أن إيراد صلة الثاني اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم، وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية مقدمة على التحلية⁽²⁴⁾.

إنّ فهم اللطائف البلاغية التي أفادها النظم الكريم، هو المؤدي إلى تمام التبصر، وتحصيل المقصد الرباني. وبالتالي تتبين الأحكام والتكاليف الموجهة إلى العباد.

5. التقرير والذم.

قال الله تعالى: ﴿ وَيُلِّ لِلْمُطَّفِّينَ، الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزُّوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾⁽²⁵⁾

يتوعد الله المطففين، وهم التجار الذين يأخذون الشيء الطفيف من حقوق المتاعين. ويبرز جشعهم في التناقض الذي يمارسونه في معاملاتهم مع المتاعين؛ فهم إذا اكتالوا من الناس ما لهم قبلهم من حقّ يستوفون لأنفسهم، فيكتالونه منهم وافياً. وإذا هم كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصونهم في مكاييلهم وموازينهم.

"فجملته ﴿ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ إدماج، مسوقة لكشف عادة ذميمة فيهم هي الحرص على توفير مقدار ما يتعاونونه بدون حق لهم فيه، والمقصود الجملة المعطوفة عليها وهي جملة: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزُّوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ فهم مذمومون بمجموع ضمن الجملتين"⁽²⁶⁾.

إنّ التقرير بالتطيف اضطلعت بمعناه الجملة المعطوفة، فكأنها الشرح والتفسير لكلمة "المطففين" بما تحمله من ذم لصفة التطفيف في المعاملات. لكن الجملة المعطوف عليها مهدت بمزيد من إثبات تلك الصفة القبيحة؛ لأنهم يستوفون لأنفسهم حقوقهم، بينما يخسون الناس فيها.

6. التهكم.

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾⁽²⁷⁾

وصفهم بـ "المصلين" إذن تهكم، والمراد عدمه. أي الذين لا يصلون. وليسوا بمسلمين؛ إذ إن الصلاة عماد الدين. وقرينة التهكم وصفهم بالموصول وصلته: "الذين هم عن صلاتهم ساهون"⁽²⁸⁾

إنّ قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ صفة للمصلين، مقيدة لحكم الموصوف. أي إن الويل للمصلي الساهي عن صلاته لا للمصلي على الإطلاق. على أن السهو هنا ليس المقصود به السهو في الصلاة. وإنما السهو عنها. فالسهو عنها ترك لها برمتها، والسهو فيها ذهول عن شيء منها أثناء أدائها. وبعبارة أخرى يكون الموصول وضميمته في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ترشيحاً وتمكيناً لمعنى التهكم الواقع في إطلاق وصف "المصلين" عليهم.

7. إثارة التعجب وتشنيع الحال.

قال عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽²⁹⁾

جاء في تفسير الطبري لهذه الآية أنهم أهل الكتاب، أنزل عليهم الكتاب فحكموا بغير الحق، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، وفرحوا بذلك، وأحبوا أن يحمّدوا بما لم يفعلوا. فرحوا بأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل الله، وهم يزعمون أنهم يعبدون الله، ويصومون ويصلون، ويطيعون الله.

ثم هم بعد كل ما أتوا من منكرات يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا، من الصلاة والصوم، فقال الله جل وعلا لمحمد صلى الله عليه وسلم: "فلا تحسبهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم".⁽³⁰⁾

يسرد هذا المفسر جملة من الأعمال المتجرئة على كتاب الله الذي استحفظ عليه خاصة أهل الكتاب فبدلوا وحرّفوا وكذبوا. وفي تزامن مع ذلك يرون أنفسهم أنهم أتوا ما يفرحهم ويرضهم، وما يستوجب مدح الناس لهم. فما جزاء هؤلاء إلا عذاب أليم. لقد كان الطبري يلمح إلى التناقض العجيب الذي عبر عنه الموصول وصلته، فأبرز ما اتصفوا به من أفعال شنيعة تدعو إلى التعجب والمقت.

ولما فسر أبو السعود هذه الآية ربط بين اختيار الموصول في النظم القرآني وصلته من ناحية، وبين الدلالة المرادة من ناحية أخرى. قال: "... فالموصول عبارة عن المذكورين أو عن مشاهيرهم وضع موضع ضميرهم، والجملة مسوقة لبيان ما تستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الأخرى، إثر بيان قباحتها. وقد أدمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهو إصرارهم على ما هم عليه من القبائح، وفرحهم بذلك، ومحبتهم لأن يوصّفوا بما ليس فيهم من الأوصاف الجميلة. وقد نُظِمَ ذلك في سلك الصلة التي حُقِّقَ أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند المخاطب إيداناً بشهرة اتصافهم بذلك".⁽³¹⁾

والمقام الذي سبقت له هذه الآية يسمح بإفادة معنى بلاغي آخر هو أن الموصول وصلته قد أفادا تسلية المخاطب والتخفيف عن نفسه، وهو رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام. ذلك أن الله يطمئنه بأنه لا تخفى عليه خافيتهم وأنه يحيط بهم علما، وأنه المتولي لحسابهم.

وهذا الغرض لمح إليه أحد الباحثين المحدثين حيث قال: "وقد أضاف معنى آخر أفاده الموصول وصلته في هذا المقام هو التسلية التي تفهم ضمنا من عرض قبائح هؤلاء القوم وسوء صنائعهم، وخبث طباعهم، وقد تضمنتها الصلة بهذا العرض".⁽³²⁾

ولمزيد من إيضاح خصوصية التركيب واختياره، والغرض الذي أفاده أقول: في الآية عدول عن الأصل؛ إذ الأصل - في غير كلام الله - أن يستعمل المتكلم المعرفة المناسبة وهي الضمير العائد عليهم (أي العائد على أهل الكتاب أو كفار قريش أو أولئك الذين طلبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم التخلف عن الجهاد). لكن اختيار المساواة البيانية بين اللفظ والمعنى تعطل بروز حقيقة مهمة، وتبقي عليها طي الخفاء، وكان لا بد من الكشف عن حقيقة هؤلاء، وهي حقيقة على ما فيها من الشطط في الباطل، تحتوي على المزيد منه متمثلا

في الطمع في أن يمدحهم الناس ويحمدوهم، وفوق ذلك أيضا يملكهم طمع في أنهم ناجون من عقاب يوم الحساب.

إن مقام الكشف عن الخصال الذميمة والمقيبة التي يتصف بها هؤلاء، مقام يقتضي ترك المساواة إلى الإطناب. وقد تجلى مقتضى الحال في التعبير عنهم بالموصول وصلته، لأن الصلة فسحة تركيبية تتيح للمتكلم تحليل وتشريح الدقائق التوصيفية لهم، التي استحقوا لأجلها ذلك الوعيد الذي قفيت به الآية: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهذه الآية هي من الأمثلة الغنية بالمعاني الأدبية التي يشي بها السياق المقامي الذي يجمع المتكلم وهو الله الخبير العليم بجميع الأحوال والأعمال المتعلقة بمخلوقاته، والمخاطب وهو رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وسائر البشر، والمتحدث عنهم في نص الآية وهم أهل الكتاب أو من كان في منزلتهم من أصحاب تلك الصفات البغيضة، والأعمال الشنيعة.

وإن مزيدا من الإمعان في الآية يكشف لنا عن مزيد من المعاني والأغراض البلاغية التي يُدرّها الموصول وصلته. فمن ذلك:

الأول: الإيجاز، وقد حصل من كون الموصول واقعا موقع ثلاث فئات، فئة اليهود، أو فئة المنافقين، أو فئة المشركين.

الثاني: الشمول، إذ من الواضح أن الصلة تجمع كل هذه الفئات الثلاثة، وتسدن إليهم نفس الأعمال والخصال الممقوتة.

الثالث: وجود الإيماء إلى الوجه الذي بني عليه الخبر، وهو الحكم عليهم بنفس المصير والجزاء. فالإيماء إلى وجه الحكم هو عبارة عن علته، المتمثلة في ابتعادهم في الضلالة والتضليل، مما عبرت عنه الصلة بالتفصيل.

8. تنزيل المجهول منزلة المعلوم للتنويه به.

قال جل ثناؤه: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (33)

يتحصل هذا الغرض من جملة الصلة بالتحديد، علما أن هذا التحديد لا يعتبر لوحده؛ لأن الصلة والموصول جزءان كالثيء الواحد، لا ينفك أحدهما من الآخر.

قال محمد الطاهر بن عاشور في تفسير الآية: إن تعريف النار تعريف للعهد، وأما وصفها بالموصول وصلته بما يقتضي علم المخاطبين بالصلة كما هو غالب في صلة الموصول، فهو من أجل تنزيل الجاهل بحقيقة النار منزلة من يعلمها، بقصد تحقيق وجود جهنم.⁽³⁴⁾

وهذا التنزيل يكون ابن عاشور قد رأى في الصلة خروجاً عن مقتضى الظاهر الذي يجري به استعمال الصلة في الغالب، واعتبرها من جهة السامع المخاطب الذي كان يعاند ويكابر وينكر عذاب النار أو يجمله

على أقل تقدير، فحملته مضمون الصلة محمل العالم بها، الذي لا يسعه جهلها. وهذا بقصد التنويه بشأن الخبر الذي تضمنته الصلة، ورفع العلم به وإبرازه وإذاعته، والإعلام بأنه مما لا يخفى. إلا أنه يحتمل أن تكون الصلة ههنا جارية على الغالب فيها، وهو كونها معلومة لدى السامعين. وأورد ابن عاشور تعليين لذلك، وهما أن العلم بها من القرآن نفسه، أو من الأخبار التي حكاها عنها أهل الكتاب. قال مضيافاً: ... أو لأن وصف جهنم بذلك قد تقرر فيما نزل قبل من القرآن كقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾⁽³⁵⁾ وإن كانت سورة التحريم معدودة في السور التي نزلت بعد سورة البقرة فإنّ في صحة ذلك العدّ نظراً، أو لأنه قد علم ذلك عندهم من أخبار أهل الكتاب.⁽³⁶⁾ وعلى أية حال فإن القول بـ " أن صلة الموصول استعملت لأداء الوظيفة الأصلية لها، أو أنها خدمت غرضاً بلاغياً آخر"، مما يدرك من مناخ الخطاب ومرحلة الدعوة. ولما يدل بشكل قاطع على قابلية التعبير القرآني لاستيعاب الدلالات المتباينة التي تتحكم فيها محددات المعنى الداخلية والخارجية، وكل ذلك يصب في حيوية وحركية البلاغة العربية.

9. غرض التعظيم:

قال الله عز وعلّا: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾⁽³⁷⁾ عبّر الله تعالى بالاسم وصلته "مما كانا فيه" لأجل التعظيم، وهو المعنى المتعين إذا فسر الضمير في قوله: "عنها" بأنه يعود على الشجرة، فيكون المعنى: أزلهما الشيطان عن الشجرة فأخرجهما من الجنة التي كانا فيها. ويكون معنى التعظيم هنا مثل قولهم: "قد كان ما كان".⁽³⁸⁾ والمعنى البلاغي المراد الذي ذكره العلامة ابن عاشور هو نفسه المعنى الذي كان صرح به أبو السعود حيث قال: في ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي من الجنة إن كان ضمير "عنها" للشجرة، والتعبير عنها بـ"ما" للإيدان بفخامتها وجلالها وملابستها له، أي من المكان العظيم الذي كانا مستقرّين فيه، أو من الكرامة والنعيم إن كان الضمير للجنة.⁽³⁹⁾ ومعاني الجلال والعظمة التي تصدق على دار النعيم، كان مؤذنا بها اختيار الاسم الموصول وصلته، وهذا الفهم والتقدير للمعنى المستتر، تكشف عنه قرائح المفسرين الذين كانوا حريصين على رصد المعاني الخفية والمقاصد التي ترمي إليها الأساليب ودلالات السياق، متسلحين بظلوغهم في البيان، ومعتمدين على تفقههم في معرفة أوضاع العربية التي نزل على وفقها القرآن الكريم. ويجب أن ننتبه إلى أن الغرض من استعمال الموصولية لا يقف عند حد إفادة التعظيم للجنة التي فقدتها آدم وزوجه بسبب إغراءات إبليس، وإنما يمتد الغرض إلى ما هو ممارسة مستقرة في حياة المؤمن عقيدة وعملاً. ويتجسد هذا الأثر تحديداً في الأعمال التالية:

1. إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله تعالى.

2. وموعظة تنبه بوجوب الوقوف عند الأمر والنهي الصادرين من إله الخلق نحو خلقه.
 3. والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنة التي كانت لأبيهم.
 4. وتربية للعداوة بينهم وبين الشيطان وجنده؛ إذ كان سببا في جرّ هذه المصيبة لأبيهم، حتى يكونوا أبدا نارا لأبيهم معادين للشيطان ووسوسته مسيئين الظنون بإغرائه.
- وتستفاد معرفة هذه الأعمال من النص بدلالة الالتزام، وهي دلالة قد تخفى عن الأذهان، ولذلك يوجد في القرآن الكريم من النصوص ما هو بين الدلالة من تحذير وأمر ونهي يختص بهذه الأمور.
- وفي هذا التجاوب الدلالي أيضا ما يعين على إدراك ما في النص القرآني من انسجام وإحالة بعضه على البعض، وتفسير بعضه ببعض.

الخاتمة:

إن معاني الموصول وصلته تزايد وتغنى في التراكيب القرآنية أمام من أجال طرف الفكر وأدام النظر في دلالاتها ووجوه معانيها وأغراضها، معتمدا على بصيرة وذوق وحس من درجة رفيعة، كما يتطلب استحضار مناسبات النزول ومعرفة الأشخاص الذين يحيل إليهم النص القرآني، والعقيدة التي تتحكم في تفكير وسلوك الأشخاص الذين يخاطبون بتلك الأساليب. ذلك ما أمكننا ملاحظته بعد التحليل البلاغي لاستعمال الاسم الموصول وصلته دون غيره من المعارف في جملة من الأمثلة القرآنية.

إن التأمل في دراسة النماذج القرآنية التي اخترناها يقودنا إلى فكرة أن التعريف بالموصولية هو اختيار أسلوب يهدف إلى التعبير عن أفعال إنجازية، أو معان تداولية يقصد إليها المتكلم، ويطلب المخاطب أن يتأثر بها اقتناعا وسلوكا. الشيء الذي توصل إليه بعض المفسرين، لأنهم يستقصون المعاني العملية التي تعبر عن التكليف الموجهة إلى العباد.

وتظهر هذه الأفعال الكلامية في صيغ العناوين التي سمينا بها الأغراض والمعاني البلاغية للتعريف بالموصولية، وهي: زيادة التقرير مع الرغبة في التستر على الاسم، التعظيم، التعليل، التنبيه على خطأ المخاطبين قصد تنديمهم، الإيماء إلى الوجه الذي بني عليه الحكم، التقرير والذم، التهكم، إثارة التعجب وتشنيع الحال، تنزيل المجهول منزلة المعلوم للتنويه به.

إنها أبنية قائمة على الإفعال والتفعيل بما يعني أنها يقصد بها إثارة المخاطب والتأثير في مشاعره وحواسه، وإقناعه وإقامة الحجة عليه لينقاد عقليا وسلوكيا. وبعبارة أخرى سيقى هذه الأغراض لتنظم في أسلوب الدعوة إلى سبيل الله بالترغيب والترهيب.

الإحالات والهوامش:

- (1) ابن هشام (جمال الدين محمد الأنصاري)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، شرح وتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط 6، 980 م، 1/150.
- (2) ينظر: ابن هشام (عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1/168.
- والسيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن ابي بكر)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1418 هـ/1998 م، 1/279 وما بعدها.
- (3) طه: 7.
- (4) ينظر: عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، الطبعة: الطبعة 15، 1/الصفحات: 340 وما بعدها.
- (5) ينظر: السكاكي (يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي أبو يعقوب)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1407 هـ - 1987 م، ص: 181.
- كما ينظر على سبيل المثال: الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن)، التلخيص في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة 2، 2009، ص: 17-19.
- (6) يوسف: 23.
- (7) ينظر: الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبد الله)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، الطبعة: الأولى - 1414 هـ، 3/20.
- (8) ينظر: محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1998، 338/7.
- (9) البقرة: 40.
- (10) محمد بن جرير الطبري (ابن يزيد بن كثير بن غالب الآملي)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م، 1/593.
- (11) فخر الدين الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة - 1420 هـ، 1/221.
- (12) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، 1/452.
- (13) الجمعة: 8.
- (14) النساء: 78.
- (15) يونس: 18.
- (16) يونس: 18.
- (17) الأنعام: 68.
- (18) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 11/125.
- (19) دلالة الإيماء عند الأصوليين، نوع من الدلالة كالاقتضاء والإشارة. ويميزها أنها تكون فيها الوحدة الكلامية دالة على المقصود بضمومها وليس بصيغتها ومنطوقها.
- ينظر: موسى بن مصطفى العبيدان، دلالة تراكييب الجمل عند الأصوليين، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات المطبعية، دمشق - سوريا الطبعة الأولى، 2002، 285.
- وقد عرف الغزالي دلالة الإيماء بأنها فهم التعليل من إضافة الحكم إلى الوصف المناسب.
- ينظر: الغزالي (الو حامد محمد بن محمد)، المستصفي من علم الأصول، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا، شركة الطباعة الفنية المتحدة، 1971 م، 1/111.

- وبالنظر في حد دلالة الإيماء عند الغزالي وغيره من الأصوليين ندرك أن مدارها التعليل أو العلة التي تفهم من مضمون الوحدة الكلامية وليس من منطوقها، ولولا وجود هذه العلة لكان اقتران الحكم بالوحدة الكلامية غير مقبول.
- (20) الأنعام: 68.
- (21) الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 هـ / 1 / 518.
- (22) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 289 / 7.
- (23) النحل: 128.
- (24) أبو السعود العمادي (محمد بن محمد بن مصطفى)، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، 153 / 5.
- (25) المطففين: 3:1.
- (26) المصدر السابق، 190 / 30.
- (27) الماعون: 4-5.
- (28) المصدر نفسه، 567 / 30.
- (29) آل عمران: 188.
- (30) ينظر: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن الكريم، 468 / 7.
- (31) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 126 / 2.
- (32) إبراهيم علي الجعيد، خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية في تفسير التحرير والتنوير: رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1999م، ص: 448.
- (33) البقرة: 24.
- (34) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 345 / 1.
- (35) التحريم: 6.
- (36) المصدر السابق، ن. ص.
- (37) البقرة: 36.
- (38) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984 هـ / 1 / 434.
- (39) أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، 159 / 1.